hawanaajd.com

أعظم

عظماء الأرض

جمع وتنسيق

د. جمال يوسف الهميلي

المدينة المنورة

١٤٣٨هـ – ٢٠١٧م

أعظم

عظماء الأرض

جمع وتنسيق

د . جمال يوسف الهميلي

المدينة المنورة

١٤٣٨ هـ — ٢٠١٧ م

المقدمة

"السلام عليكم، أهلا وسهلا بكم في أول جامعة لصناعة العظماء"

كانت هذه أول جملة يقولها صاحب الستين عاما، ذو الشعر الأبيض، وقد بدت عليه علامات السنين وآثار الجهد من البحث والدراسة، أمام أول ١٠٠ شخص تم اختيارهم بعناية فائقة وسلسلة من الاختبارات على مدى ثلاث سنوات، فهم يمثلون دفعة في هذه لجامعة العالمية، ولنعد إلى صاحب الستين عاما حيث يقول:

ليس لدينا وقتاً لنتكلم، نحن وأنتم امام مهمة تتعلق بأهل الأرض جميعا، عمرنا قصير وطموحنا كبير، لقد تم اختياركم من بين ملايين وستعملون من أجل المليارات من البشر، فهذه أول جامعة عالمية غير مرتبطة بأي جنسية أو لون أو دين تكون مهمتها صناعة وبناء عظماء الأرض.

امامكم طريق صعب لكنه ممتع، شاق لكنه يُسعد، متعب لكنه يُريح.

ثم تنهد قليلاً وبدأ النظر في الـ ١٠٠ متأملاً فيهم وكأنه ينظر من خلالهم لمستقبل الأرض ليرفع صوته قائلاً:

إن العمر الحقيقي للإنسان ليس بعدد السنوات بل بما يحققه من إنجازات وبما يساهم فيه لبناء الحضارات والرقي بالبشرية إلى أسمى الدرجات، فهناك الملايين بل المليارات من البشر ممن عاش على هذه الأرض لسنوات عديدة لكنه لم يترك له بصمة فيها، وفي المقابل هناك من عاش سنوات محدودة لكنه لا يزال يُذكر في كل الأحوال ولا تزال سيرته تُروى لكل لأجيال.

ومن البديهي أنه كلما كانت المساهمة في مجالات أكبر وأوسع كان الذكر أبقى، فمن ساهم في مجال الهندسة والرياضيات والطب سيكون ذكره في كل هذه المجالات ومن ساهم في مجال واحد سيكون ذكره أقل، ليس هذا فحسب بل لابد من النظر في نوعية تلك المساهمة، ومدى حاجة الناس لها على مختلف مستوياتهم وجميع أجناسهم، فالإنجاز الذي يحتاج إليه الناس أكثر وشريحته أكثر وأشمل لا شك سيكون صاحبه أكثر ذكراً.

وأمر آخر وهو أن تخرج تلك المساهمة عن طور النظرية إلى طور التطبيق، أي أن تكون تلك المساهمة قابلة للتطبيق وليست كلاماً ونظرية مجردة ليس لها واقع ملموس، أو لا يمكن تحقيقها على أرض الواقع، فهناك العديد من النظريات الحالمة التي ظلت في الأدراج والسبب هو عدم إمكانية تطبيق تلك النظرية؛ تلك أهم صفات الإنجازات التي أبقت ذكر أصحابها العظماء.

ومن مقتضيات العدل الرباني ألا تنحصر جميع الإنجازات في أمة معينة ولا زمن محدد، فلكل أمة من الأمم عظيم أو أكثر تفتخر بسيرهم وأعمالهم وتسطر إنجازاتهم

بمداد من الذهب، لأنهم ساهموا بدور في بناء تلك الأمة والرقي في نهضتها في زمن ما.

وهناك نوع خاص من البشر وهم قليلون جداً تجاوزت إنجازاتهم أمتهم لتشمل البشرية جميعاً وظهرت آثارهم في مختلف أصقاع الأرض، فحق على البشرية ردُّ جميل هؤلاء وشكرهم، ومن شكرهم دراسة سيرتهم والنظر والتأمل، فيها وتربية الأجيال على تلك السير العطرة؛ لعلها تساهم في نهضة البشرية وإخراجها من بحر المتاهات والفوز بالسعادة الإنسانية.

لذا سيكون حديثي معكم ولمدة سبع جلسات فقط لاستعراض سيرة إنسان له بصمات واضحة وانجازات شهد بها أعداؤه قبل اصدقاؤه، ولن آخذ من وقتكم كثيرا إنما هي خمس إلى عشر دقائق في كل جلسة نسير مع هذه الشخصية.

وانا شخصياً أعتبر أن هذه السيرة وما فيها من اختصار هي المفتاح لكم والمنطلق الذي يمكنكم الاسترشاد به لتحقيق أهدافكم السامية والتي حضرتم هنا من أجلها.

والآن اترككم لتستمعوا في هذه الجامعة فقصتنا ستبدأ غدا مع الشخصية.

إلى اللقاء

الفصل الأول:

الطفل اليتيم

دخل صاحب الستين وبين يديه خارطة

بعد أن حيا الطلاب، بدأ حديثه:

لعلك لاحظتم أنه في كتابه السير للبشر يذكرون تاريخ الوفاة، ذاك لأن هذا العظيم لم يكن عظيماً حين ولادته فلا أحد يعلم ماذا سيكون وماذا سيقدم.

أمر آخر وهو أن سير العظماء لا تبدأ بولادتهم – إلا ما ندر مثل عيسى عليه السلام – ، وإنما تبدا بممارستهم للحياة والخوض فيها وبجميع أشكالها.

وأمر ثالث وأخير: وهو أنه بعد أن يصبح العظيم عظيماً، يبدأ الجميع بالكتابة عنهم والرجوع إلى تاريخه والنظر فيه، فالحقيقة أن العظيم هو من فرض علينا كتابة تاريخه من ولادته إلى نهايته.

وهنا وقف صاحب الستين ليسأل الطلاب جميعا:

مَن هو أعظم عظماء الأرض؟

فسكت الجميع لبرهة من الزمن بانتظار الإجابة، لكنه أعاد السؤال مرة أخرى وبصوت أعلى: مَن هو أعظم عظماء الأرض؟

وبدأت القاعة تعج بالأصوات الخفيفة، ثم ترجل أحد الطلاب

فقال: أرسطو.

والثاني: بل نيوتن.

الثالث: عيسى عليه السلام .

وبدأت الإجابات تنهال وتكثر، وصاحبنا يستمع، وبعد دقيقتين اشار بيده فسكت الجميع.

ثم جلس ولبس نظارته ورفع رأسه ليخاطبهم قائلا: ليس المهم مَن يكون، المهم ماذا قدّم؟

وبمعنى آخر ما معايير قياس العظمة الانسانية، والتي بناءاً عليها يمكننا مقارنة عظماء البشر.

وقد اشرت بالأمس في حديثي معكم إلى أهم تلك المعايير فعليكم العودة إليها ومراجعتها.

وهنا وقف أحد الطلاب وقال: ايها البروفسور، في رأيك أنت مَن أعظم العظماء؟

وهنا ساد القاعة صمت رهيب، فالكل ينتظر إجابة الخبير، وبعد ثوانٍ وكأنها ساعات، التفت صاحب الستين ليقول:

منذ أكثر من أربعين سنة وأنا اقرأ في التاريخ البشري في مخلف البقاع، من قبل الميلاد إلى وقتنا الحاضر والذي نعايشه اليوم، استعرضت سير الآلاف الشخصيات، وأصعب ما واجهته هو معرفة الحقيقة فالكل يكتب لكن هناك مَن يمدح وهناك مَن يذم وهناك مَن يبالغ وهناك مَن يُقزِّم.

اطلعت على كتب من صنف في العظماء وبيان مَن هم، وما صفاتهم.

سافرت وقابلت بعض العظماء المعاصرين ومَن عايشهم من أهلهم وذويهم.

تحدثت وتناقشت مع الكثير من الباحثين في موضوع العظماء، لم أقتصر على أهل بلد ولا لغة ولا دين ولا حضارة، وإنما اجتهدت أن أكون عالمياً إنسانياً.

كتبت بعض الكتب عن شخصيات بعض العظماء، ونشرت في المكتبات وأظنكم قرأتموها قبل حضوركم إلى هنا.

إما الإجابة على هذا السؤال: مَن أعظم العظماء؟ فسأتركه لكم وسأجيبكم بعد نهاية قصتنا، وخلال هذه الأيام اقرأوا وتأملوا سير العظماء وضعوا معايير لتكتشفوا في النهاية مَن أعظم العظماء، وأظننا سنتفق في النهاية جميعا على شخصية أعظم العظماء.

وقف صاحب الستين وفتح الخارطة وأشار إلى مكان عليها قائلاً:

تبدأ قصتنا عام ٥٧٠ م وفي شبه الجزيرة العربية وهي في غرب قارة آسيا، وعند الكعبة المشرفة حيث كانت تعيش قبيلة تسمى قبيلة قريش، وهم سادة مكة والمتولين أمرها وأمر البيت المقدس (الكعبة) الذي كان العرب يحجون إليه ويعظمونه، لذا كانت هذه القبيلة أشرف قبائل العرب وأفضلها.

وها هو سيد قبيلة قريش في زمانه (عبد المطلب) يختار لولده عبد الله وكان لديه ١٠ من الأبناء آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، وهي يومئذ تعد أفضل امرأة في قريش نسبًا وموضعًا، ويتم الزواج ويفرح الزوجان ببعضهما ويعيشان أياماً سعيدة، وبعد أيام قليلة خرج عبد الله متاجرًا إلى الشام (شمال جزيرة العرب) ، وللاستراحة نزل بالمدينة وهو مريض فتوفي بها، ودفن هناك، وله إذ ذاك خمس وعشرون سنة.

سمعت الزوجة الحنون بموت زوجها الحبيب فحزنت حزناً شديداً فقد كانت تحبه مع أنهما لم يمضيا معاً إلا أياماً معدودة، لكنها تحملت وتصبرت من أجل جنينها من زوجها الحبيب فقد ثبت لها أنها حامل من زوجها عبد الله، وخلال تلك الفترة وفي شهر فبراير أو أوائل مارس سنة ٥٧١ م حدثت قصة عجيبة في مكة:

ذلك أن أبرهة بن الصباح الحبشى، النائب العام عن النجاشي على اليمن (جنوب شبه الجزيرة العربية)، لما رأى العرب يحجون إلى الكعبة بنى كنيسة كبيرة بصنعاء (

عاصمة اليمن)، وأراد أن يصرف حج العرب إليها، وسمع بذلك رجل من بني كنانة، فدخلها ليلًا فلطخ قبلتها بالعذرة. ولما علم أبرهة بذلك ثار غيظه، وسار بجيش كبير ـ عدده ستون ألف جندي ـ إلى الكعبة ليهدمها، واختار لنفسه فيلاً من أكبر الفيلة، وكان في الجيش ٩ فيلة أو ١٣ فيلاً، وواصل سيره حتى بلغ المغَمَّس (مكان قرب مكة) وهناك عَبّأ جيشه وهَيّأ فيله، وتهيأ لدخول مكة، فلما كان في وادى مُحَسِّر (بين مزدلفة ومنى وادي قريب من الكعبة) برك الفيل، ولم يقم ليتقدم إلى الكعبة، وكانوا كلما وجهوه إلى الجنوب أو الشمال أو الشرق يقوم يهرول، وإذا صرفوه إلى الكعبة برك، فبيناهم كذلك إذ أرسل الله عليهم طيرًا أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول. وكانت الطير أمثال الخطاطيف والبلسان، مع كل طائر ثلاثة أحجار؛ حجر في منقاره، وحجران في رجليه أمثال الحمص، لا تصيب منهم أحدًا إلا تقطعت أعضاؤه وهلك، وليس كلهم أصابت، وخرجوا هاربين يموج بعضهم في بعض، فتساقطوا بكل طريق، وأما أبرهة فبعث الله عليه داء تساقطت بسببه أنامله، ولم يصل إلى صنعاء إلا وهو مثل الفرخ، وانصدع صدره عن قلبه ثم هلك.

وأما قريش فكانوا قد تفرقوا في الشِّعاب، وتحرزوا في رؤوس الجبال خوفًا على أنفسهم، فلما نزل بالجيش ما نزل رجعوا إلى بيوتهم آمنين.

ونظراً لأهمية هذا الحدث العظيم فقد أرّخ العرب هذا العام وأسموه بعام الفيل، وفي هذا العام وبعد خمسين يوماً أو أكثر بقليل أي في عام ٥٧١ م وفي مكة وَلدَت آمنة بنت وهب وليدها الوحيد وأرسلته إلى جده عبد المطلب الذي أسماه محمد لعله

يكثر حامدوه، لقد ولد محمد وأبوه ميتاً ولم ير أباه فبقي في رعاية جده عبد المطلب وبين أحضان أمه آمنة، فهل استمر الوضع؟

لقد كان من عادة العرب أن يعطوا أبنائهم الصغار إلى مرضعات ثقات في الصحراء يتولون أمر إرضاعهم ورعايتهم حتى سن معين، وكان من نصيب محمد ﷺ مرضعة تسمى (حليمة السعدية) ولندعها تتحدث عن ذلك فتقول:

خرجت من بلدتي مع زوجي وابن لي صغير أرضعه في نسوة من بني سعد بن بكر، نتلمس الرضعاء. قالت : وذلك في سنة شهباء لم تبق لنا شيئًا، فخرجت على أتان (أنثى الحمار) وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذي معنا، من بكائه من الجوع، ما في ثديي ما يغنيه، وما في مكاننا ما يغديه، ولكن كنا نرجو الغيث والفرج، فخرجت على أتاني تلك، حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء، فما منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله ﷺ فتاباه، إذا قيل لها: إنه يتيم، وذلك أنا كنا نرجو المعروف من أبي الصبي، فكنا نقول: يتيم! وما عسى أن تصنع أمه وجده، فكنا نكرهه لذلك، فما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعًا غيري، فلما أجمعنا الانطلاق قلت لزوجي: والله ، إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ولم آخذ رضيعاً، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه. قال : لا عليك أن تفعلي، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة. قالت: فذهبت إليه وأخذته، وما حملني على أخذه إلا أنى لم أجد غيره، قالت: فلما أخذته رجعت به إلى رحلي، فلما وضعته في حجري أقبل عليه ثدياي

بما شاء من لبن، فشرب حتى روى، وشرب معه أخوه حتى روى، ثم ناما، وما كنا ننام معه قبل ذلك، وقام زوجي إلى شاتنا تلك، فحلب منها ما شرب وشربت معه حتى انتهينا ريا وشبعا، فبتنا بخير ليلة، قالت: يقول صاحبي حين أصبحنا: تعلمي والله يا حليمة، لقد أخذت نسمة مباركة، قالت: فقلت: والله إني لأرجو ذلك. قالت: ثم خرجنا وركبت أنا أتاني، وحملته عليها معي، فوالله لقطعت بالركب ما لا يقدر عليه شيء من حمرهم، حتى إن صواحبي ليقلن لي: يا ابنة أبي ذؤيب، ويحك! أربعي علينا، أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها؟ فأقول لهن: بلى والله ، إنها لهي هي، فيقلن: والله إن لها شأنًا، قالت: ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد، وما أعلم أرضًا من أرض الله أجدب منها، فكانت غنمي تروح عليَّ حين قدمنا به معنا شِباعًا لُبَّنًا، فنحلب ونشرب، وما يحلب إنسان قطرة لبن، ولا يجدها في ضرع، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم: ويلكم، اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب، فتروح أغنامهم جياعًا ما تبض بقطرة لبن، وتروح غنمي شباعًا لبنًا. فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته، وكان يشب شبابًا لا يشبه الغلمان، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلامًا جفرًا. قالت: فقدمنا به على أمه ونحن أحرص على مكثه فينا، لما كنا نرى من بركته، فكلمنا أمه، وقلت لها: لو تركت ابني عندي حتى يغلظ، فإني أخشى عليه وباء

مكة، قالت: فلم نزل بها حتى ردته معنا ولم يستمر الأمر طويلاً فقد خشيت حليمة على الطفل فقررت إرجاعه إلى أمة وأرجعته وعمره ست سنوات.

وهكذا عاد الطفل اليتيم إلى أمه بعد الرضاع ليبدأ قصة جديدة ومرحلة صعبة، فقد خرجت أمه من مكة إلى يثرب (المدينة) للزيارة، فمكثت شهرًا، وبينما هي راجعة إذ لحقها المرض في أوائل الطريق، ثم اشتد حتى ماتت بين مكة والمدينة.

وعاد به عبد المطلب (جده) إلى مكة، وكانت مشاعر الحزن في قلبه نحو حفيده اليتيم، فَرَقَّ عليه فكان لا يدعه لوحدته، بل يؤثره على أولاده، فكان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالًا له، فكان رسول الله ﷺ يأتي وهو غلام صغير حتى يجلس عليه، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه، فيقول عبد المطلب: دعوا ابني هذا، فوالله إن له لشأناَ، ثم يجلس معه على فراشه، ويمسح ظهره بيده، ويسره ذلك.

لقد استمر الموت يلاحق المقربين لهذا الطفل ــ لحكمة ربانية ــ فبعد فقد أباه في بطن أمه وفقد أمه وهو في سن السادسة لم تمض سنتان أي أن عمر الطفل ثمان سنوات يُتوفى جده الحبيب عبد المطلب، ويعهد برعايته لعمه (شقيق أباه) أبي طالب.

وبدأ الطفل يكبر ليصبح شاباً وقد أصبح أفضل قريشٍ أخلاقاً فقد عرف بينهم بـ " الصادق الأمين "، وفي الخامسة والعشرين من عمره تسمع به امرأة شريفة في قريش لها تجارة رابحة تسمى (خديجة) فتطلب منه أن يخرج في تجارتها وتعطيه أفضل ما تعطي غيره فوافق وخرج في مالها، وخرج معه غلامها ميسرة حتى قدم الشام.

وفي سن الخامسة والعشرين خرج تاجرًا إلى الشام في مال خديجة – رضي الله عنها – ، ولما رجع إلى مكة، ورأت خديجة في مالها من الأمانة والبركة ما لم تر قبل هذا، وأخبرها غلامها ميسرة بما رأى فيه ﷺ من صفات كريمة، وفكر راجح، ومنطق صادق، ونهج أمين، وجدت ضالتها المنشودة . وكان السادات والرؤساء يحرصون على زواجها فتأبي عليهم ذلك . فتحدثت بما في نفسها إلى صديقتها ، التي ذهبت إليه ﷺ تفاتحه أن يتزوج خديجة، فرضى بذلك، وكلم أعمامه، فذهبوا إلى عم خديجة وخطبوها إليه، وعلى إثر ذلك تم الزواج، وكانت سنها إذ ذاك أربعين سنة، وكانت يومئذ أفضل نساء قومها نسباً وثروةً وعقلاً، وهي أول امرأة تزوجها رسول الله ﷺ، ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت.

وكل أولاده ﷺ منها سوى إبراهيم ولدت له: أولاً القاسم، ثم زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، وعبد الله، ومات بنوه كلهم في صغرهم، أما البنات فكلهن أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن إلى المدينة.

وقبل أن نختم الحلقة الأولى من حياته ﷺ لابد من ذكر القصة التي حدثت حين كان عُمر محمد ﷺ خمسة وثلاثين سنة، لبيان كيف كان عقله ﷺ وكيف كانت نظرة قومه إليه:

ففي تلك السنة جاء سيل كبير فهدم الكثير من الكعبة حتى أوشكت على الانهيار، فاضطرت قريش إلى تجديد بنائها حرصًا على مكانتها، واتفقوا على ألا يدخلوا في بنائها إلا طيباً، وبعد الهدم أرادوا الأخذ في البناء فجزّأوا الكعبة، وخصصوا لكل قبيلة جزءًا منها.فجمعت كل قبيلة حجارة على حدة، وأخذوا يبنونها، وتولى البناء بنّاء رومي اسمه: باقوم. ولما بلغ البنيان موضع الحجر الأسود (أحد أركان الكعبة) اختلفوا فيمن يمتاز بشرف وضعه في مكانه، واستمر النزاع أربع ليال أو خمسًا، واشتد حتى كاد يتحول إلى حرب في أرض الحرم، إلا أن أبا أمية بن المغيرة المخزومي عرض عليهم أن يحكّموا فيما شجر بينهم أول داخل عليهم من باب المسجد فارتضوه، وشاء الله أن يكون ذلك رسول الله ﷺ، فلما رأوه هتفوا: هذا الأمين، رضيناه، هذا محمد، فلما انتهى إليهم، وأخبروه الخبر طلب رداء فوضع الحجر وسطه ، وطلب من رؤساء القبائل المتنازعين أن يمسكوا جميعًا بأطراف الرداء، وأمرهم أن يرفعوه، حتى إذا أوصلوه إلى موضعه أخذه بيده فوضعه في مكانه.

نظر صاحب الستين إلى طلابه فوجدهم مشدودين معه متابعين بشغف لما سيحدث، ولسان حالهم يقول أين العظمة؟

أدرك صاحبنا ذلك فأغلق خارطته ووضعها في يده، وقبل خروجه التفت إليهم بتلك الجملة:

وهكذا عاش الطفل اليتيم بين قومه صادقاً أميناً صاحب عقل راجح وذكاء مُتَّقد، لكن حياته الحقيقية لم تبدأ بعد فثمة أمور وأحداث عظيمة تنتظره.

موعدنا غداً

الفصل الثاني

الرسالة

جلس صاحبنا على الكرسي المخصص له، بين يديه جهاز غريب لم يره الطلاب من قبل، وحين لاحظ أن الجميع ينظر إليه بادرهم: أظنك تودون معرفة هذا الجهاز؟

فأجاب الجميع: نعم بالتأكيد.

فقال: هذا أحدث جهاز تواصل بين البشر، فمجرد نظري إليها يعرف ماذا اريد من معلومات ثم يبحث في المواقع المخصصة ويظهرها امامي على الشاشة.

جميل. رائع... مبدع... خارق .. وغيرها من كلمات العجاب والطراء قالها الطلاب.

وضع صاحبنا الجهاز على طاولته، ووسط إعجاب واندهاش من الطلاب قال: إننا نعيش في ثورة المعلومات، ولم تشهد البشرية مثل هذه الثورة من قبل، ومن صفات العظيم أن يتقن وبدرجة عالية جداً توظيف تلك الثورة لتحقيق أهدافه، لذا وجب علينا عند دراسة العظماء أن نعرف مصدر معلومات ذاك العظيم من أين حصل عليها، وما مدى مصداقية ذلك المصدر وما الذي اضافه إلى البشرية وكيف استطاع العظيم توظيف لإسعاد الناس أجمعين.

وحتى لا نتحدث كثيراً دعونا نرجع إلى سيرة عظيمنا الذي بدأناها بالأمس:

حين بلغ محمد ﷺ سن السابعة والثلاثين حبّب الله إليه العزلة عن قومه، والمكث بعيداً عنهم في غار حراء في جبل النور على بعد نحو ميلين من مكة – (وهو غار طوله أربعة أذرع، وعرضه ذراع وثلاثة أرباع الذراع) – فيقيم فيه شهر رمضان (الشهر التاسع من الأشهر العربية)، ويقضي وقته في العبادة والتفكير فيما حوله من مشاهد الكون وفيما وراءها من قدرة مبدعة، وهو غير مطمئن لما عليه قومه من عقائد الشرك الواهية، ولكن ليس بين يديه طريق واضح، ولا منهج محدد، ولا طريق يطمئن إليه و يرضاه.

وبعد سنتان ونصف من ذلك ظهرت علامة أخرى فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت وظهرت حقيقة ، واستمر الوضع هذا لمدة ستة أشهر ، ثم حين بلغ الأربعين من عمره وفي شهر رمضان وفي غار حراء حدث الأمر الخطير، فقد جاءه الحق كما ذكرت ذلك عائشة رضي الله عنها حيث قالت: حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ: قال: (ما أنا بقارئ)، قال: (فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال:" ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥﴾ العلق: ١ – ٥

، فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال: (زَمّلُوني زملوني)، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة: (ما لي؟) فأخبرها

الخبر، (لقد خشيت على نفسي)، فقالت خديجة: كلا، والله ما يخزيك الله أبدًا، فانطلقت به خديجة حتى أتت به (ورقة بن نوفل ابن أسد) ابن عم خديجة – وكان رجلاً تنصر في الجاهلية، يكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي –فقالت له خديجة: يا بن عم، اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا بن أخي، ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي انزله الله على موسى، يا ليتني فيها جَذَعا (أي شاباً)، ليتبني أكون حيًا إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: (أو مخرجيّ هم؟) قال:نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودِيَ، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا، وبعد فترة قصيرة توفي ورقة.

ولنعد لمحمد ﷺ حيث يقول: (جاورت بحراء شهراً فلما قضيت هبطت فنوديتُ، فنظرت عن يميني فلم أر شيئًا، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئًا، ونظرت أمامي فلم أر شيئا، ونظرت خلفي فلم أر شيئًا، فرفعت رأسي فرأيت شيئًا، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فخشيت على نفسي فذهبت مسرعاً إلى أهلق وقلت: (زملوني، زملوني) ، فدثروني فنزلت قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢﴾ المدثر: ١ – ٢

قام رسول الله ﷺ بعد نزول ما تقدم من آيات سورة المدثر، بالدعوة إلى الله سبحانه وتعالى؛ وحيث إن قومه لا دين لهم إلا عبادة الأصنام والأوثان، ولا حجة لهم إلا أنهم وجدوا آباءهم على ذلك، وكانوا مع ذلك متصدرين للزعامة الدينية في

جزيرة العرب، ومحتلين مركزها الرئيس، ، فقد كان من الحكمة تلقاء ذلك أن تكون الدعوة في بدء أمرها سرية؛ لئلا يفاجئ أهل مكة بما يهيجهم.

لقد كان الله قادراً على نصرة رسوله ﷺ من أول يوم في الرسالة لكنه – سبحانه – أراد أن يعلم البشر والناس أجمعين أن طريق التغيير وطريق الدعوة ليس سهلاً وليس مفروشا بالورود، بل يحتاج إلى تضحية وبذل وصبر ومصابرة ومجاهدة، كما أنه ثمة سنن كونية وسنن ربانية يسير فيها هذا الكون ومن ذلك: التغيير في النفس البشرية وخاصة التغيير العقائدي فحري بكل داعية وكل مسلم أن يتعرف على تلك السنن ويلتزم بها ولا يحاول الخروج عنها مهما كان هدفه وغايته.

وكان من الطبيعي أن يعرض الرسول ﷺ الإسلام أولاً على ألصق الناس به من أهل بيته، وأصدقائه، فدعاهم إلى الإسلام، ودعا إليه كل من توسم فيه الخير ممن يعرفهم ويعرفونه، يعرفهم بحب الحق والخير، ويعرفونه بتحري الصدق والصلاح، فأجابه من هؤلاء جَمْعٌ، وفي مقدمتهم زوجة النبي ﷺ أم المؤمنين خديجة بنت خويلد، ومولاه زيد بن حارثة وابن عمه علي بن أبي طالب . وكان صبيًا يعيش في كفالة الرسول ﷺ ، وصديقه الحميم أبو بكر الصديق. وهؤلاء هم أول من أسلم .

ومرت ثلاثة أعوام، والدعوة لم تزل مقصورة على الأفراد، ولم يجهر بها النبي ﷺ ،إلا أنها عُرِفت لدى قريش، وفشا ذكر الإسلام بمكة، وتحدث به الناس، لكنهم لم يهتموا به كثيرًا حيث لم يتعرض رسول الله ﷺ لدينهم، ولم يتكلم في آلهتهم، ثم نزل قول الله تعالى ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ الشعراء: ٢١٤ فدعا رسول الله ﷺ

عشيرته ، وقال: (الحمد لله، أحمده وأسعينه، وأومن به، وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له). ثم قال: (**إن الناصح لا يكذب أهله ، والله الذي لا إله إلا هو، إني رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس عامة، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، وإنها الجنة أبداً أو النار أبداً**).

فقال أبو طالب: ما أحب إلينا معاونتك، وأقبلنا لنصيحتك، وأشد تصديقاً لحديثك. وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون، وإنما أنا أحدهم، غير أني أسرعهم إلى ما تحب، فامض لما أمرت به. فوالله، لا أزال أحوطك وأمنعك، غير أن نفسي لا تطاوعني على فراق دين عبد المطلب.

وبعد تأكد النبي ﷺ من تعهد أبي طالب بحمايته وهو يبلغ عن ربه، صعد النبي ﷺ ذات يوم على الصفا (جبل صغير قرب الكعبة)، ثم جعل ينادى قريشاً والقبائل في مكة فلما سمعوا قالوا: من هذا الذي يهتف؟ قالوا: محمد. فأسرع الناس إليه، حتى إن الرجل إذا لم يستطع أن يخرج إليه أرسل رسولًا لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش. فلما اجتمعوا قال: **أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلًا بالوادي بسَفْحِ هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟** .

قالوا: نعم، ما جربنا عليك كذبًا، ما جربنا عليك إلا صدقًا.

قال: **إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**، ثم دعاهم إلى الحق، وأنذرهم من عذاب الله، فقال: **يا معشر قريش، اشتروا أنفسكم من الله، أنقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أملك لكم من الله ضرًا ولا نفعًا، ولا أغنى عنكم من الله شيئًا**.

وهكذا جهر الرسول ﷺ بالدعوة وبدأ بإعلانها على الملأ فزاد عدد المسلمين، وهنا بدأت قريش تعلن حربها للدين الجديد، واتخذت عدة أساليب وطرق منها:

- ✓ إثارة الشبهات،
- ✓ ومنع الناس من سماع القرآن،
- ✓ واتهام الرسول ﷺ بالسحر والجنون

وغيرها من الأساليب، وكان من أشد الأساليب قسوة الإيذاء للرسول الكريم ﷺ وأتباعه مثل:

١. صهيب بن سنان الرومي رضي الله عنه الذي كان يُعذَّب حتى يفقد وعيه ولا يدري ما يقول.

٢. و بلال الحبشي رضي الله عنه الذي كان يُسلَّم للصبيان، يطوفون به في جبال مكة، ويجرونه حتى كان الحبل يؤثر في عنقه، وهو يقول: أحَدٌ أحَدٌ، وكان يُخرج إذا حميت الظهيرة، فيطرح على ظهره في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة

فتوضع على صدره، ثم يُقال له لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى، فيقول وهو في ذلك: أحد،أحد.

٣. وعمار بن ياسر ﵁ أسلم هو وأبوه وأمه، فكان المشركون يخرجونهم إلى الأبطح إذا حميت الرمضاء فيعذبونهم بحرها. ومر بهم النبي ﷺوهم يعذبون فقال: (صبرًا آل ياسر، فإن موعدكم الجنة) ، فمات ياسر في العذاب، وطعن أبو جهل سمية (أم عمّار) في قُبُلها بحربة فماتت، وهي أول شهيدة في الإسلام

٤. وكان خباب بن الأرت ﵁ حدادًا، فلما أسلم عذبوه بالنار، فكانت توضع الحديدة المحماة على ظهره أو رأسه،

٥. وكانت زِنِّيرَةُ أَمَةً رومية قد أسلمت فعذبت في الله، وأصيبت في بصرها حتى عميت، فقيل لها: أصابتك اللات والعزى، فقالت: لا والله ما أصابتني، وهذا من الله، وإن شاء كشفه، فأصبحت من الغد وقد رد الله بصرها، فقالت قريش: هذا بعض سحر محمد.

وهكذا لم يسلم الرجال ولا النساء، من الأذى، وهذه من قواعد بناء العظماء واتباعهم التعذيب والآلام.

، وبينما صاحبنا يتحدث أطرق رأسه إلى الأرض وقد بدى عليه التأثر من تلك المواقف، والطلاب ينظرون إليه وهم يشاركونه تلك المشاعر فساد الصمت الحزين على القاعة، ولم يقطعه إلا صوت صاحب الستين وهو يلملم أوراقه ويأخذ جهازه ليقول لهم عند الباب

ولكن ماذا عسى أن يفعل محمد ﷺ وكيف سيواجه ذلك؟

هذا موضوع لقاءنا غدا

مع السلامة

وخرج صاحبنا وبقي الحزن يخيم على القاعة.

الفصل الثالث

الصراع في مكة

السلام عليكم

أسعد الله صباحكم بكل خير أيها العظماء

هكذا بدأ صاحبنا، ثم أخرج قطعة الكترونية صغيرة من جيبة ووضعها في الجهاز، وهنا وقف أحد الطلاب وتكلم بصوت مرتفع: أيبها البروفسور: لقد خرجنا بالأمس وكلنا حزن، حتى أني لم أستطع قراءة ما خصصته من كتب ولم أسعد بنوم.

فوقف صاحبنا ونظر إلى المتحدث بعين الاعجاب والإكبار وقد بدت عليه علامات السعادة، ثم وزع نظره على جميع الطلاب ليقول: هذا ما أردته، إن العظيم هو من يملك شعورا مرهفا واحساساً صادقا، نحن لا نريد آلات تعمل بل نرغب ببشر ينتج وينجز، العظيم هو من ينظر إلى كل البشر بعين العطف والرحمة ثم يسعى ليكون مشاركاً في سبب هذه الرحمة أو هو سببها الرئيس.

ابني الحبيب: ابشر أنت على الطريق تسير، فأعظم دوافع الانسان للعمل والانجاز هو المشاعر والأحاسيس، فمن لو يشعر لا يعمل إلا بحدود ضيقة ولمصلحة خاصة.

جلس الطالب وقد بدت عليه علامات الفرح والسرور، ونظر إلي زملاؤه بعين التقدير والاحترام، ثم أنصت الجميع لصاحبنا.

سنأخذ دقيقة واحدة فقط لمشاهدة هذا الفيديو، ثم بدأ صاحب الستين بعرض الفيديو وبيده ساعة ليحسب الدقيقة.

تفاجأ الجميع بأن العرض عبارة عن لقطة من أشرس المصارعات الحرة وأشدها فتكاً، صراع بين اقوى مصارعين.

وبعد الدقيقة اغلق صاحبنا الجهاز، ثم يقف ويرفع صوته:

هكذا صراع العظيم، لكنه صراع قيم ومبادئ، صراع فكر ورسالة صراع حق وباطل، صراع وجود أو عدم، العظيم لا يصارع لينتصر بل يصارع لتسعد البشرية.

وصراع أقوى مما رأيتهم وما ذاك إلا لأنه سيواجه المجتمع المتخلف بأفكاره ومعتقداته وقيمه، وكما اتفقنا فلن نكثر الكلام وسنكتفي بسيرة العظيم:

لقد بدى لأهل مكة أن الدِّين الجديد يزداد في الانتشار، وأن وسائلهم حتى الآن لم تكن كافية لمنعه، واتفقوا على أنه لابد من التخلص من الرسول ﷺ، ولكن كيف وعمه يمنعه؟ فقرروا أن يجروا معه المفاوضات وتكررت أكثر من مرة حتى وصل الأمر إلى التهديد ،؛ فقد جاءت سادات قريش إلى أبي طالب فقالوا له: يا أبا طالب، إن لك شأناً وشرفًا ومنزلة فينا، وإنا قد حدثناك عن ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا ، من شتم آبائنا، ، وعيب آلهتنا، حتى تكفّه عنا، أو ننازله وإياك في ذلك، حتى يهلك أحد الفريقين. عَظُم على أبي طالب هذا الوعيد والتهديد الشديد، فبعث إلى رسول الله ﷺ وقال له: يا بن أخي، إن قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا، فأبق عليَّ وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق، فقال ﷺ: (يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك فيه)، ثم استعبر وبكى، وقام، فلما ولى ناداه أبو طالب، فلما أقبل قال له: اذهب يا بن أخي، فقل ما أحببت، فو الله لا أُسْلِمُك لشيء.

ومع هذا فلم يسلم الرسول ﷺ من الأذية ، فمن ذلك ،كان أبو لهب قد زوج ولديه عتبة وعتيبة ببنتي رسول الله ﷺرقية وأم كلثوم قبل البعثة، فلما كانت البعثة أمرهما بتطليقهما بعنف وشدة حتى طلقاهما. وكانت امرأة أبي لهب (أم جميل أروى بنت حرب بن أمية) أخت أبي سفيان – لا تقل عن زوجها في عداوة النبي ﷺ –

فقد كانت تحمل الشوك، وتضعه في طريق النبي ﷺ وعلى بابه ليلًا، وكانت امرأة سليطة تبسط فيه لسانها، وتطيل عليه الافتراء والدس، وتؤجج نار الفتنة، وتثير حربًا شعواء على النبي ﷺ؛ ولذلك وصفها القرآن بحمّالة الحطب،ولم يكن من الحكمة المواجهة مع قريش لأن ذلك ربما يقضي على كل المسلمين كما أن التربية الإيمانية لم تكتمل بعد لإعداد جيل يتحمل مسؤولية الدعوة .

ومن باب الأخذ بالأسباب أمر الرسول الكريم ﷺ صحابته بالهجرة إلى الحبشة لوجود ملكٍ لا يُظلم عنده أحد، وفعلاً خرج بعض المسلمين ثم بعد فترة أخرى تبعهم فوج آخر من المؤمنين ليبقوا هناك يعبدون الله.

علمت قريشاً بالهجرة فحاولوا إغراء الملك بالهدايا والوشاية على الصحابة الكرام، لكن الله أبطل مكيدتهم، وأبقى الملك المسلمين عنده في أمان ورعاية واطمئنان.

ولأن الله هو مدبر الأمور ومسيرها كما يشاء فقد جعل الفرج والمبشرات تخرج من بين البلاء والشدائد، فمع هذا التعذيب والتنكيل وبعد ست سنوات من البعثة يسلم اثنين من كبار رجالات قريش ومن أشدهم قوة ومنعة هما حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب، ليكون إسلامهما نصراً للمسلمين ونكاية لقريش الكافرين، وهكذا يجري الله من الأسباب ما يحقق به مراده.

ويروي لنا ابن عباس كيف كان إسلام عمر فتحاً فقال: سألت عمر بن الخطاب: لأي شيء سميت الفاروق؟ قال: أسلم حمزة قبلي بثلاثة أيام . ثم قص عليه قصة إسلامه. وقال في آخره: قلت – أي حين أسلمت -: يا رسول الله ، ألسنا على

الحق إن متنا وإن حيينا؟ قال: (بلى، والذي نفسي بيده، إنكم على الحق وإن متم وإن حييتم)، قال: قلت: ففيم الاختفاء؟ والذي بعثك بالحق لنخرجن، فخرجنا في صفين، حمزة في أحدهما، وأنا في الآخر،،حتى دخلنا المسجد، قال: فنظرت إلىّ قريش وإلى حمزة، فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها، فسماني رسول الله ﷺ(الفاروق) يومئذ.

عندها أدركت قريش أنه لابد من المفاوضات مع الرسولﷺ فأرسلت عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من المكانة في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع منى أعرض عليك أمورًا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها. قال: فقال رسول ﷺ: (قل يا أبا الوليد أسمع). قال: يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالًا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت تريد به شرفًا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد به ملكًا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه . أو كما قال له . حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺيستمع منه قال: (**أقد فرغت يا أبا الوليد؟**) قال: نعم، قال: (فاسمع مني)، قال:أفعل، فقال: " **بسم الله الرحمن الرحيم**: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٌ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٌ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥ ...﴾ فصلت: ١ – ٥

ثم مضى رسول الله ﷺ فيها، يقرؤها عليه. فلما سمعها منه عتبة أنصت له، وألقى يديه خلف ظهره معتمدًا عليهما، يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ثم قال: (**قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك**).

فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني سمعت قولًا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم. بعدها زادت حيرة المشركين إذ نفدت بهم الحيل، ووجدوا بني هاشم وبني المطلب مصممين على حفظ نبي الله ﷺ والقيام دونه، فاجتمعوا وتحالفوا على بني هاشم وبني المطلب ألا يناكحوهم، ولا يبايعوهم، ولا يجالسوهم، ولا يخالطوهم، ولا يدخلوا بيوتهم، ولا يكلموهم، حتى يسلموا إليهم رسول الله ﷺ للقتل، وكتبوا بذلك صحيفة فيها عهود ومواثيق (ألا يقبلوا من بني هاشم صلحًا أبدًا، ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموه للقتل).

واشتد الحصار، وقُطِع الطعام عن بني هاشم، فلم يكن المشركون يتركون طعامًا يدخل مكة ولا بيعًا إلا بادروه فاشتروه، حتى بلغهم الجهد، والتجأوا إلى أكل الأوراق والجلود، وحتى كان يسمع من وراء الشعب أصوات نسائهم وصبيانهم يبكون من الجوع.

ومر عامان أو ثلاثة أعوام والأمر على ذلك، وفي محرم سنة عشر من النبوة نقضت الصحيفة وفك الحصار.

ولم تنته الشدائد على الرسول الكريم ﷺ فقد حدث أمر أحزنه حزناً شديداً، ففي شهر رجب من السنة العاشرة للهجرة مرض أبو طالب، ثم لم يدم طويلاً فوافته المنية وتوفي، فحزن عليه الرسول ﷺ ،ولم تمض ثلاثة أيام حتى توفيت خديجة زوج الرسول الكريم ﷺ ويزداد الحزن على الرسول العظيم ﷺ.

لقد أراد الله أن يجعل نبيه يتعلق به – سبحانه–فقط وليس بالبشر فهم لا حول لهم ولا قوة إلا بالله، فالذي يمنع ويحمي من الناس وغيرهم هو الله وحده وما أولئك إلا أسباب أجراها الله لزمن معين لحكم يعلمها سبحانه.

وبعد موت أبي طالب زادت أذية قريش لرسولنا الكريم ﷺ ولاتباعه، حينها قرر الخروج من مكة والدعوة لعلها تجد قبولاً أكثر من قريش .

وفي شوال سنة عشر من النبوة(٦١٩ م) خرج النبي ﷺ إلى الطائف، وهي تبعد عن مكة نحو ستين ميلا، سارها ماشيًا على قدميه ، ومعه مولاه زيد بن حارثة،

وكان كلما مر على قبيلة في الطريق دعاهم إلى الإسلام، فلم تجب أي واحدة. فلما انتهي إلى الطائف عمد ثلاث إخوة من رؤساء ثقيف (أهل الطائف) ، وأقام رسول الله ﷺ بين أهل الطائف عشرة أيام، لا يدع أحدًا من أشرافهم إلا جاءه وكلمه، فقالوا: اخرج من بلادنا. وأغروا به سفهاءهم، فلما أراد الخروج تبعه سفهاؤهم وأطفالهم يسبونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس، فوقفوا له أي صفين وجعلوا يرمونه بالحجارة وبالكلام القبيح ،حتى ألجأوه إلى بستان. فلما التجأ إليه رجعوا عنه.

وأتى رسول الله ﷺ فجلس واطمأن، ثم دعا قائلاً : (اللهم إليك أشكو ضَعْف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يَتَجَهَّمُنِي؟ أم إلى عدو ملَّكته أمري؟ إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحل علي سَخَطُك، لك العُتْبَى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك).

إنه الارتباط بالله وحده لا غيره، عقيدة التوحيد، فكل مصيبة وبلية تصغر وتهون إن كان الله غير غاضب على العبد، فما أجملها من كلمات وما أعظمه من درس للناس وللمسلمين بالخصوص وللدعاة بالأخص.

ويسمع الله تلك الكلمات فيرسل جبريل عليه السلام ، لنستمع للرسول الكريم ﷺ وهو يتحدث عن عودته فيقول :

فانطلقت – وأنا مهموم – على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقَرْنِ الثعالب – وهو المسمى بقَرْنِ المنازل حوالي ٧٥كم عن مكة – فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. فناداني ملك الجبال، فسلم عليّ ثم قال: يا محمد، ذلك، فما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين – أي لفعلت، والأخشبان: هما جبلا مكة: – قال النبي ﷺ: (**بل أرجو أن يخرج الله عز وجل من أصلابهم من يعبد الله عز وجل وحده لا يشرك به شيئا**) ، عندها صمم الرسول ﷺ على العودة إلى مكة للدعوة ،فقال له زيد : كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك؟ يعنى قريشًا، فقال:

هنا صمت صاحبنا قليلاً، ثم وقف وهو يقول: سأجعل ختامي كلامي اليوم من كلمة هذا العظيم ثم قال

(يا زيد، إن الله جاعل لما ترى فرجًا ومخرجًا، وإن الله ناصر دينه، ومظهر نبيه).

فما هو الفرج وكيف سيكون المخرج وكيف سينصر الله دينه ويظهر نبيه؟

غدا نلتقي

الفصل الرابع

الفرج والمخرج

السلام عليكم، صباح الخير أيها العظماء " هكذا افتتح صاحب الستين لقاءه ثم فتح صورة كبيرة وعلقها في جدار امام الطلاب، وقال: هل تعرفون هذه الصورة؟

سكت الجميع فترة، ثم قال أحدهم بصوت خافت: كأنه بقايا حريق أو زلزال.

فقال صاحب الستين: هذا بقايا القنبلة النووية التي ألقتها امريكا على اليابان في الحرب العالمية الثانية، والتي كانت السبب في استسلام اليابان وانتصار أمريكا.

لقد أبقى اليابانيون هذا المدخل، واتخذوه شعاراً لهم كبوابة نحو إعادة البناء والتميز والإعمار، فأصبح رمزاً وطنياً وصورة دافعة لهم، فهو بالنسبة لهم المخرج من المحنة والانطلاق نحو العالمية وعدم الاستسلام للهزيمة.

وفعلا هذا ما حصل، انطلقت اليابان بعد نهاية الحرب، ومع كل الدمار والخسائر البشرية والمادية، انطلقت بسواعد ما بقي من أبنائها لتقول للعالم نحن هنا وأن الفرج يكون بعد الشدة وأن الأزمة ميلاد المنحة.

إن من أبرز صفات العظماء القدرة على التحمل والصبر، ليس لذواتهم فقط بل وتزويد غيرهم بالوقود الذي يُكسبهم المحافظة على المسير والنظر إلى الامام واكتساب الخبرات من الأحداث.

ومن نتائج ذلك النظرة الثاقبة للمستقبل والتعامل الايجابي للحاضر لما يرونه من غدٍ واعد، ولعله مما اتفق عليه البشر–وهذه تحتاج دراسة متأنية – أن الفرج يكون بعد الشدة وأن النصر يسبقه الألم، والناظر في التاريخ لعموم العالم شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ولمختلف الحركات النهضوية والثورات الانسانية مهما كان توجهها، أن تُعصر وتتعرض لسحق وتخسر العديد من قيادات الصف الأول، ولكن النصر في النهاية يكون لمن يصبر وان الفرج يكون بعد الشدة وأن المخرج يكون بعد ضيق الطريق وظلمته.

هذه جزء من ثقافة العظماء التي يزرعوها في أنفسهم وفيمن حولهم، فمن أكبر المعينات على الصبر: البيئة المحيطة أو الأفراد المقربين، فعليك ايها العظيم حسن تربيتهم وتعاهدهم فقد يكونوا يوماً ما هم الذين يثبتونك.

ولنعد إلى سيرة عظيمنا ولنرى ماذا حصل بعد موقف الطرد:

نحن الآن في السنة العاشرة من البعثة (٦١٩ م)، وعلى مقربة من شهر ذي الحج حيث يتوافد العرب إلى مكة للحج، فقد قرر الرسول ﷺ أن يعرض نفسه على الأفراد والقبائل ، ويدعوهم إلى الإسلام ، كما كان يدعوهم منذ السنة الرابعة من البعثة ، وقد بدأ يطلب منهم أن يؤووه وينصروه ويمنعوه حتى يُبلّغ ما بعثه الله به، فأسلم بعض الأفراد أما القبائل فلم تسلم.

إن الله إذا أراد أمراً هيأ له أسبابه، ففي سنة ١١ من البعثة وفي موسم الحج عاد الرسول الكريم ﷺ يعرض نفسه على القبائل، وكان من حكمته ﷺ إزاء ما كان يلقى من أهل مكة من التكذيب والصد عن سبيل الله أنه كان يخرج إلى القبائل في ظلام الليل، حتى لا يراه مشركي مكة.

فخرج ليلة ومعه أبو بكر رضي الله عنه وعلي رضي الله عنه ، فمر على عدة قبائل فلم تجب ثم مر رسول الله ﷺ ، فسمع أصوات رجال يتكلمون فذهب حتى لحقهم، وكانوا ستة نفر من شباب يثرب(المدينة المنورة) فلما لحقهم رسول الله ﷺ قال لهم: **(مَن أنتم؟)** قالوا: نفر من الخزرج، قال: (من موالي اليهود؟) أي حلفائهم، قالوا: نعم. قال: **(أفلا تجلسون أكلمكم؟)** قالوا: بلى، فجلسوا معه، فشرح لهم حقيقة الإسلام ودعوته، ودعاهم إلى الله عز وجل، وتلا عليهم القرآن. فقال بعضهم لبعض: تعلمون والله يا قوم، إنه للنبي الذي توعدكم به يهود (كانوا يسمعون من حلفائهم

من يهود المدينة، أن نبيًا من الأنبياء مبعوث في هذا الزمان سيخرج)، فلا تسبقنكم اليهود إليه، فأسرعوا إلى إجابة دعوته، وأسلموا.

ولما رجع هؤلاء إلى المدينة حملوا إليها رسالة الإسلام، حتى لم تبق دار من دور المدينة إلا وفيه ذكر رسول الله ﷺ، تلك كانت بداية الفرج والمخرج.

وفي موسم عام ١٢ من البعثة (٦٢١ م) التقى ١٢ رجلاً من المدينة بالرسول الكريم ﷺ وبايعوه عند العقبة وسميت بيعة العقبة الأولى ، يرويها أحد الحاضرين وهو عبادة بن الصامت فيقول : أن رسول الله ﷺ قال: (**تعالوا بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف، فمن وفّى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب به في الدنيا، فهو له كفارة، ومن أصاب من ذلك شيئًا فستره الله ، فأمره إلى الله ؛ إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه**).

قال: فبايعناه على ذلك.

وبعد تمام البيعة أرسل الرسول معهم إلى يثرب أول سفير في الإسلام ليعلمهم دينهم الجديد ويدعو بقية أهل يثرب وكان صاحب هذا الشرف مصعب بن عمير رضي الله عنه ، فذهب معهم فأحسن التعليم وأجاد في الدعوة ، وقبل حلول موسم الحج التالي . أي حج السنة الثالثة عشرة . عاد مصعب إلى مكة يحمل إلى رسول الله ﷺ بشائر النصر، ويقص عليه خبر إسلام أهل يثرب.

في موسم الحج في السنة الثالثة عشرة من البعثة (٦٢٢م) حضر لأداء مناسك الحج بضع وسبعون نفساً من المسلمين من أهل يثرب لتتم بيعة العقبة الثانية كما يرويها أحد أبطالها :خرجنا إلى الحج، وواعدنا رسول الله ﷺبالعقبة من أوسط أيام التشريق، فلما فرغنا من الحج، وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله ﷺ لها ، فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ، نتسلل ، مستخفين، حتى اجتمعنا في الشِّعْب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً، وامرأتان من نسائنا، وحضر الرسول ﷺ ومعه عمه العباس رضي الله عنه فتكلم رسول الله ﷺ، فتلا القرآن، ودعا إلى الله ، ورغب في الإسلام، ثم قال: (**أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نسائكم وأبناءكم**). فأخذ البراء بن مَعْرُور بيده ثم قال: نعم، والذي بعثك بالحق نبيًا، لمنعنك مما نمنع أُزُرَنا منه، فبايعنا يا رسول الله ، فنحن والله أبناء الحرب وأهل الحَلْقَة، ورثناها كابرًا عن كابر. قال: فاعترض القول(والبراء يكلم رسول الله ﷺ) أبو الهيثم بن التَّيَّهَان، فقال: يا رسول الله ، إن بيننا وبين الرجال حبالًا، وإنا قاطعوها - يعنى اليهود - فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله إن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ قال: فتبسم رسول الله ﷺ، ثم قال: (**بل الدَّمُ الدَّمُ، والهَدْمُ الْهَدْمُ، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم**).

لقد كان من أبرز نتائج تلك البيعة وجود وطن يمكن أن يلجأ إليه المؤمنون ويعيشون فيه، لذا كان لابد من ترك الوطن الأصلي (مكة) والهجرة إلى المكان الجديد (يثرب)، فمهما كانت مرارة ترك الأوطان وصعوبتها إلا أنها تهون عند الدين وعبادة الله في أمان واطمئنان.

وفعلاً بدأ المسلمون الهجرة إلى يثرب على شكل أفراد أو مجموعات صغيرة، أما القائد الرسول الأعظم ﷺ فقد بقي في مكة؛ لحين إتمام الأمور وتصفية أحوال المسلمين، وكل هذا يسير وفق رعاية ربانية.

وفي يوم الخميس ٢٦ من شهر صفر سنة ١٤ من البعثة ، الموافق ١٢ من شهر سبتمبر سنة ٦٢٢م عقد في (دار الندوة) أخطر اجتماع حيث توافد إلى هذا الاجتماع جميع نواب القبائل القرشية ؛ ليتدارسوا خطة حاسمة تكفل القضاء سريعاً على حامل لواء الدعوة الجديدة محمد ﷺ قبل أن يهاجر إلى يثرب وتزداد شوكته ، وكان القرار التاريخي هو أن يأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جلداً ، ثم يُعطى كل فتى منهم سيفًا صارمًا، ثم يذهبوا إليه، فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه، فنستريح منه، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعًا، فلا تقدر قبيلته على حرب قومهم جميعاً، فيرضون بالفدية، ويعطوها.

وأخبر الله رسوله ﷺ بالخطة وأمره بالهجرة، وخطط الرسول للهجرة مع صاحبه أبي بكر رضي الله عنه.

وفي ليلة ٢٧ من شهر صفر سنة ١٤ من النبوة، الموافق ١٣/١٢ سبتمبر سنة ٦٢٢م.خرج الرسول ﷺ وجعل على فراشه علياً ومر بين الفتيان الذي أتوا لقتله وهو يقرأ قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾ يس: ٩ ، واختار شخصاً خبيراً بالطرق ليدله على طريق مختلف إلى يثرب (المدينة المنورة).

علمت قريش بخروج الرسول الكريم ﷺ وهجرته إلى يثرب (المدينة) فلاحقوه ووضعوا الجوائز لمن يرشدهم عليه، لكن الله حفظه وسلّمه.

لقد كانت العناية الربانية للرسول الكريم ﷺ في هجرته جلية وواضحة ومع ذلك فقد أخذ الرسول الكريم ﷺ من الأسباب المادية ما يستطيع ليُعلِّم الناس كلهم أن التوكل على الله لا يعني أبدا التخلي عن الأسباب بل إن من التوكل على الله الأخذ بالأسباب التي يستطيعها البشر، فمن الأسباب التي عملها الرسول الكريم ﷺ :

١. تجهيز الرواحل (الإبل) وإعدادها.

٢. الخروج ليلا.

٣. وتغيير مسار السفر إلى المدينة.

٤. واختيار شخص عالم بالطريق الجديد.

٥. التخفي عن العيون وبين الكهوف.

٦. أمره لعلي رضي الله عنه أن يبقى في فراشه ليلاً، ليوهم الكفار بأنه مازال في البيت.

وهكذا استمر الموكب الكريم وفي يوم الجمعة (١٢ ربيع الأول سنة ١ هـ/ الموافق ٢٧ سبتمبر سنة ٦٢٢م) دخل رسول الله ﷺ يثرب، وسميت المدينة المنورة. وكان يومًا مشهودًا، فقد ارتجت البيوت والسكك بأصوات الحمد والتسبيح، وبدأت مرحلة جديدة في حياة النبي الكريم ﷺ ، مرحلة بناء الدولة الإسلامية.

فكيف ستكون تلك الدولة؟

موعدنا غدا

وتذكروا أن العظماء لا يقفون عند حد معين بل يسعون لنشر السعادة على وجوه الناس أجمعين من خلال معرفة القوانين الكونية واستثمارها وعدم التصادم معها.

مع السلامة

الفصل الخامس

البناء والمواجهة

دخل صاحبنا القاعة ومعه كتاب وجهاز.

وبعد التحية رفع الكتاب بيد والجهاز بيد أخرى، ثم سأل الطلاب:

مَن هو صاحب التأثير الأكبر في البشرية مخترع الجهاز أم مؤلف الكتاب؟

فتنوعت الاجابات وتعددت، ولكن الأغلب كان يرى أن مخترع الجهاز هو الأكثر تأثيرا.

جلس صاحب الستين، وسكت الجميع، وبعد ثوانٍ قال صاحبنا:

كلنا يعرف آثار اليونان والرومان وآثار المصريين القدماء بالأهرامات وغيرها، وآثار الهند بتاج محل، وأيضا لا ننسى سور الصين العظيم وغيرها من الآثار البشرية، والتي اصطلح على تسميتها عجائب الدنيا السبعة – وهي أكثر من سبعة–، لكن المتأمل في كل هذه الآثار سيرى أنها آثار مادية ملموسة ليس لها بعد اجتماعي أو فكري، وإن كانت نتيجة تصميم

راق وعمل منظم، كما أنها ليس لها أثر كبير في السلوك البشري ورقيه وإنما في الحياة المادية.

والأمر نفسه الآن في القرن الحادي والعشرين فهناك الكثير ممن ساهم في البناء المادي بمختلف صوره، لكن هذا لم يحقق الرقي البشري إلا حين يستخدم ذلك الاختراع أو الإنجاز في الرقي، وهذا لا يقوم به صاحب الاختراع وإنما يستثمره صاحب الكتاب، وبمعنى آخر **المخترع صاحب وسيلة والكاتب صاحب رسالة**، والفرق كبير بين الاثنين.

يكاد يتفق كل الباحثين في علم الاجتماع الإنساني والسلوك البشري أن أفضل المساهمين في الرقي البشري السلوكي هو الرسل والأنبياء على مر العصور والأزمان، ومع ذلك فلا نرى لهم أي آثار مادية من بناء، وما ذاك إلا لانشغالهم بما هو أسمى.

هنا وقف أحد الطلاب وقال: أيها البروفسور، لا أظن انه ناك من ينكر تأثير الانترنت ووسائل الاتصال والتواصل على مختلف البشر وفي كل مكان.

قال صاحبنا: نعم، ولست أنكر ذلك، لكن مخترع النت والأجهزة الأخرى إنما قدم الوسيلة التي ساهمت بدور كبير جدا في سهولة التواصل ونقل الأفكار وتبادلها، لكنه لم يقدم الفكر والرسالة، لذا كانت هذه الوسائل

وبالاً على العديد من الناس والعديد من المجتمعات مما اضطر بعض الحكومات لسن قوانين تحد من هذه الوسائل وتقلل من التعامل معها.

ومن ميزات العظماء أنه لا يحاولوا خرق القوانين، ولا مصادمة الابتكارات وإنما يجتهدون في استثمارها وتوجيهها نحو الرقي البشري وتحقيق الساعدة للجميع.

نحن نشجع الابتكارات وندفعها بقوة ونثني على أهلها، فهي نتاج فكر واعي، وكم أتمنى أن نكون ممن يجمع الاثنين معا أقصد تقديم ابتكار وتقديم رسالة. وموجز الكلام أن عظماء العالم ثلاثة اقسام:

القسم الأول: ساهم التقدم المادي الملموس.

القسم الثاني: وهم مَن قدّم رسالة وفكر ساهمت في الرقي البشري.

القسم الثالث: وهم مَن قدّم الاثنين معا.

ولما كان الاهتمام بالقسم الأول كثير وفي مختلف الدول نظراً للدور الاقتصادي لذلك، كانت فكرة هذه الجامعة في الاهتمام بالقسم الثاني، ليكون التكامل في هذه الأرض من الجميع، فلعل ذلك يحقق السعادة للجميع، وعلى هذا تم اختياركم وتُبيت برامجكم، فعليكم بالجد والاجتهاد فالطريق امامكم.

والآن دعونا نكمل مسيرة عظيمنا:

إنَّ عبقرية رسول الإسلام ﷺ لا تكمن في الدعوة فقط بل في كل الأمور، ومن أبرزها بناء المجتمع الإسلامي الجديد وقيام الدولة الإسلامية على أسس سليمة وقوية وراسخة جعلت منها دولة يشهد لها القريب والبعيد، والصديق والعدو، واستطاعت أن تجعل لها بصمات واضحة على تاريخ البشرية، ولا يزال هذا الأثر واضحاً حتى بعد مرور أكثر من ١٤٠٠ سنة وسيظل هذا الأثر إلى ما شاء الله، فكيف استطاع رسول الإسلام ﷺ عمل ذلك؟ لاشك أن التأييد الرباني هو الأساس وراء كل هذا، ولكن هذا التأييد كان وفق خطوات وبرامج وأسباب رُسِمت للرسول ﷺ . فلنعد إلى السيرة العطرة للتعرف على تلك الأسباب:

دخل رسول الإسلام المدينة وأول خطوة خطاها رسول الله ﷺ بعد ذلك هو بناء المسجد النبوي، واختار له المكان الذي بركت فيه ناقته ﷺ، فاشتراه من غلامين يتيمين كانا يملكانه، وأسهم في بنائه بنفسه، فكان ينقل اللبِن والحجارة ويقول:

اللهم لا عَيْشَ إلا عَيْشُ الآخرة ** فاغْفِرْ للأنصار والمُهَاجِرَة

ولم يكن المسجد موضعاً لأداء الصلوات فحسب، بل كان جامعة يتلقى فيها المسلمون تعاليم الإسلام وتوجيهاته، وميدان يلتقي فيه المسلمون لتذويب ما بينهم من أحقاد وخلافات، وزرع الحب والأخوة والترابط، ومقر لإدارة جميع شؤون الدولة الجديدة، ومع هذا كله كان دارًا يسكن فيها عدد كبير من فقراء المهاجرين اللاجئين الذين لم يكن لهم هناك دار ولا مال ولا أهل ولا بنون.

ثم كانت الخطوة الثانية التي لم تر البشرية مثلها ولم تعرف لها شبيه، ألا وهي خطوة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، فقد آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دار أنس بن مالك رضي الله عنه ، وكانوا تسعين رجلًا، نصفهم من المهاجرين، ونصفهم

من الأنصار، أخي بينهم على المواساة، ويتوارثون بعد الموت دون ذوى الأرحام إلى حين وقعة بدر، فلما أنزل الله عز وجل: ﴿..وَأُوْلُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾﴾ الأنفال: ٧٥ رد التوارث إلى الرحم دون عقد الأخوة.

ومعنى هذا الإخاء أن تذوب عصبيات الجاهلية، وتسقط فوارق النسب واللون ويكون أساس الولاء والبراء هو الدين. لقد امتزجت عواطف الإيثار والمواساة ، والمؤانسة وإسداء الخير في هذه الأخوة، وملأت المجتمع الجديد بأروع الأمثال ، ومن ذلك ما حدث بين عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وسعد بن الربيع رضي الله عنه الذي قال لعبد الرحمن: إني أكثر الأنصار مالًا، فاقسم مالي نصفين، ولى امرأتان، فانظر أعجبهما إليك فسمها لي، أطلقها، فإذا انقضت عدتها فتزوجها، قال: بارك الله لك في أهلك ومالك، أين سوقكم؟ فدلوه على السوق، وبدأ بالتجارة فأصبح من كبار تجار المسلمين في المدينة.

حقا لقد كانت خطوة الأخوة من الخطوات الحكيمة والرائدة لبناء مجتمع سعيدٍ، يترابط فيه الناس ويتناصحون ويبذلون من أنفسهم؛ مما ساهم في حل الكثير من المشاكل التي يمكن أن تعصف بالمجتمع، ومنع كل مَن يسعى في خلخلة المجتمع الجديد.

هذا ما يتعلق بالمسلمين، لكن ثمة فئة أخرى في المدينة غير مسلمين، فماذا عمل الرسول ﷺ معهم؟

أقرب الناس للمسلمين في المدينة هم ا اليهود وإن كانوا يبطنون العداوة للمسلمين، لكن لم يكونوا أظهروا أية مقاومة أو خصومة بعد، فعقد معهم رسول الله ﷺ

معاهدة قرر لهم فيها النصح والخير، وترك لهم فيها مطلق الحرية في الدين والمال، ولم يتجه إلى سياسة الإبعاد أو المصادرة والخصام.

وفيما يلى أهم بنود هذه المعاهدة:

إن اليهود أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم، وكذلك . وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم. وإن النصر للمظلوم. وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو شجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد رسول الله ﷺ. وبإبرام هذه المعاهدة صارت المدينة وضواحيها دولة لها احترامها وسيادتها ، عاصمتها المدينة ، قائدها رسول الله ﷺ، والكلمة النافذة والسلطان الغالب فيها للمسلمين ، ولتوسيع منطقة الأمن والسلام عاهد النبي ﷺ قبائل أخرى في المستقبل بمثل هذه المعاهدة، حسب ما اقتضته الظروف.

وبقيت فئة ثالثة لم تظهر إلا في المدينة ألا وهي فئة المنافقين (وهم مَن يُظهِرون الإيمان ويُبطِنون الكفر) ، فكان من حكمة النبي ﷺ أن يتعامل معهم بما يظهرون ويترك سرائرهم لله وحده عز وجل.

وهكذا كانت الخطوات الثلاث كفيلة ببناء مجتمع مترابط متعاون، يعرف كل منهم ماله وما عليه، ويسعى في توظيف طاقاتهم؛ لخدمة الدين الجديد والمساهمة في بناء الدولة الجديدة، كما ساهمت في توضيح علاقات المسلمين بغيرهم وبمن حولهم بناءاً على الاحترام والتقدير لكلا الطرفين.

أما قريش فقد أغضبها ما حصل للرسول ﷺ وما هيأ الله له من أسباب النصر والتمكين، فسعت في محاربة الرسول ﷺ بطرق جديدة فبعد مصادرة أموال

أصحابه المهاجرين والاستيلاء على دورهم في مكة قرروا اغتيال الرسول ﷺ ولم يكن هذا مجرد وهم أو خيال، فقد تأكد لدى رسول الله ﷺ من مكائد قريش ما جعله يضع حراسة عليه حتى نزل قوله تعالى : ﴿...وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٧﴾ المائدة: ٦٧ فقال ﷺ: **(يا أيها الناس، انصرفوا عني فقد عصمني الله عز وجل).**

ولم يكن الخطر مقتصراً على رسول الله ﷺ، بل كان يحدق بالمسلمين كافة، فقد كان المسلمون لا يبيتون إلا بالسلاح، ولا يصبحون إلا فيه، فكان المسلمون يأتون للرسول ﷺ ويستأذنونه في قتال الكفار والمعتدين فيقول : لم يُؤذن لي بعد حتى أنزل الله تعالى الإذن بالقتال للمسلمين ولم يفرضه عليهم، قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩﴾ الحج: ٣٩ وأنزل معه آيات بين لهم فيها أن هذا الإذن إنما هو لإزاحة الباطل وإقامة شعائر الله، قال تعالى﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٤١﴾ الحج: ٤١ ولما نزل الإذن بالقتال كان من الطبيعي أن تكون البداية في قتال (قريش) كفار مكة ، ولا يعني هذا بالضرورة مقاتلهم في مكة أو في المدينة ولكنه يعني السماح بقتالهم بأي أسلوب ، فاختار الرسول الكريم ﷺ أن يعترض قوافل قريش في الطريق والاستيلاء ، عليها نظراً للظلم الذي تعرض له الصحابة الكرام ، ونهب قريش لأموالهم لرد جزءٍ من تلك الأموال .

فقرر الرسول الكريم ﷺ السيطرة على الطريق الرئيس الذي تسلكه قريش من مكة إلى الشام في تجارتها، واختار لذلك خطتين:

الأولى: عقد معاهدات الحلف أو عدم الاعتداء مع القبائل التي كانت مجاورة لهذا الطريق، أو كانت تقطن ما بين هذا الطريق وما بين المدينة.

الثانية: إرسال البعوث بشكل مستمر إلى هذا الطريق.

وفي صفر سنة ٢ هـ، الموافق أغسطس سنة ٦٢٣م، خرج رسول الله ﷺ بنفسه في سبعين رجلاً من المهاجرين خاصة يعترض عيراً لقريش، فكانت هذه أول غزوة غزاها رسول الله ﷺ.

فكيف ستسير الأمور؟

وماذا سيفعل الكفار؟

وكيف ستكون المواجهة؟

الفصل السادس

الغزوات النبوية

دخل صاحب الستين القاعة واتجه مباشرة إلى السبورة الوريقة الموجودة في طرف القاعة، وقبل ان يبدأ الحديث أخذ القلم ورسم هذا الشكل :

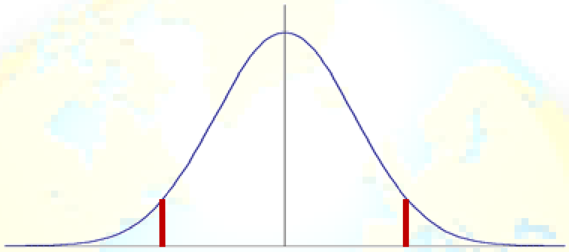

ثم التفت إلى طلابه :

السلام عليكم ، صباح الخير والسعادة.

أظنكم ستسألون عما رسمته، أنه يعبر ‘ن نظرية الجرس المتعلقة بالكثير من سلوكيات البشر، وملخصها أن الناس ثلاثة اقسام :

١. قسم لديه هذا الخلق أو الموهبة بشكل جبلي.

٢. قسم لا يمكنه اكتساب هذا الخلق أو الموهبة .

٣. القسم الثالث والأخير وهو القسم الذي لديه القابلية لاكتساب هذا الخُلق والاستعداد لاكتساب تلك الموهبة ، طبعا بدرجات متفاوتة بينها.

ومما يهم العظماء: كيف يمكن إكساب الناس قيم الحق والتمسك به، واستطيع القول أن الناس هنا ثلاثة :

- ✓ قسم يلتزم بتلك القيم حتى لو حارب من أجلها.
- ✓ قسم معارض لتلك القيم ويحاربها.
- ✓ القسم الثالث وهو الأعم والأكثر، هم المتأثرون بالبيئة المحيطة بشكل كبير، وعلى أساس المتحكم في البيئة تكون قيمهم وتصرفاتهم.

ولما كان الأكثر هم القسم الثالث ،كان لابد من سيادة الحق، وعد السماح للقسم الثاني بالظهور والتمكين لئلا يجر الناس إلى الباطل ودناءة القيم.

ومن هنا كان لابد للحق من قوة، فالحق بلا قوة مقهور محصور والقوة بلا حق ظلم وجور، وقوة الحق لها اشكال واصناف منها القوة الحربية

والعسكرية، فالعظماء مطالبون بالسعي لإكساب الحق القوة العسكرية ، بل والمشاركة معه في مواجهة الباطل حتى لو كان ذلك بالمجازفة بالأرواح، فقتال العظماء ليس قتلاً شخصياً، وهم يدفعون القتال ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، فهم أبعد الناس عن سفك الدماء ولكنهم أكثر الباذلين عند الفداء.

لقد شهد العالم حروبا كثيرة ولعل آخرها الحربين العالميتين والتي ذهب ضحيتها أكثر من ٧٠ مليون انسان، عدا المشردين والأيتام والأرامل.

قتال العظماء إنما هو من أجل البشرية واعطاء كل انسان حريته في حياته وفق منهج قويم وطريق سليم ، فلا قهر ولا إذلال بل كرامة وإجلال.

يا عظماء المستقبل عليكم السعي لكسب القوة بكل أشكالها ما استطعتم إلى ذلك سبيلا، ولا تعطوا الفرصة للظالمين للتحكم بالناس أجمعين.

والآن لنكمل مسيرة عظيمنا ولنرى ماذا فعل بعد قيام دولته:

بعد نشأة الدولة الإسلامية وتكوينها لابد من مرحلة جديدة في المواجهة، لقد كانت الفترة الماضية فترة بناء وتحصين وتثبيت العقيدة السليمة في نفوس الصحابة، تمهيداً للمهمة الكبرى في إنقاذ البشرية من ظلمات الكفر، فلا بد أن تكون البداية في صناعة الإنسان المسلم وغرس الإيمان في قلبه، ليكون نموذجاً يُحتذي به.

ثم جاءت مرحلة المواجهة والقتال ورد الظلم والتي بدأت من:

١. غزوة بدر:

علم الرسول الكريم ﷺ بخروج قافلة كبيرة لقريش بقيادة أبي سفيان، تحمل ثروات طائلة لكبار أهل مكة ورؤسائها: ألف بعير مملوءة بأموال لا تقل عن خمسين ألف دينار ذهبي. ولم يكن معها من الحرس إلا نحو أربعين رجلا، فقال لصحابته:" **هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها**". أي تصيبوا منها.

واستعد رسول الله ﷺ للخروج ومعه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، عندها علمت قريش بخروج الرسول الكريم ﷺ لاعتراض قافلتها فقررت المواجهة والقتال فاستعدت بنحو ألف وثلاثمائة مقاتل.

علم أبو سفيان بخروج النبي ﷺ فغير طريق القافلة فنجت، وأخبر قريشاً بذلك وحثهم على العودة ولكنهم رفضوا وأصروا على القتال والقضاء على الرسول الكريم ﷺ، وهنا وقف الرسول الكريم ليستشير صحابته في القتال حيث أنهم خرجوا

للقافلة وليس لمقاتلة جيشٍ كبير، فأجمعوا على القتال والجهاد في سبيل الله عندها انطلق الجيش الإسلامي للمواجهة.

وفي بدر (مكان يبعد عن المدينة حوالي ١٠٠ كم غرب المدينة) التقى الجيشان واستعدّ كل منهما للقتال، فعبأ رسول الله ﷺ جيشه. ومشى في موضع المعركة، وجعل يشير بيده: (**هذا مصرع فلان غداً إن شاء الله، وهذا مصرع فلان غداً إن شاء الله**). ثم بات رسول الله ﷺ يصلي إلى جذع شجرة هنالك وكان ذلك ليلة الجمعة، السابع عشرة من رمضان في السنة الثانية من الهجرة، وفي صباح ذلك اليوم بدأت المعركة الأولى بين المسلمين وكفار قريش وأوحى الله إلى ملائكته: ﴿..أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ الأنفال: ١٢ ، وأوحى إلى رسوله: ﴿..أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ الأنفال: ٩- أي إنهم ردف لكم، أو يردف بعضهم بعضًا أرسالاً، لا يأتون دفعة واحدة. ونصر الله المؤمنين نصراَ عظيما.

ولئن كانت بدر سبباً في فرح المسلمين، فقد كانت سبباً في حزن الكافرين والمنافقين وكذلك اليهود الذين كانوا يطمحون للتخلص من المسلمين والقضاء على الدعوة الجديدة، لذا حاول بعض فئات اليهود التعرض للمسلمين والنيل منهم والتحرش بنسائهم (أي إنهم نقضوا العهد) فما كان من الرسول الكريم ﷺ إلا أن حاصرهم ثم أبعد بعضهم عن المدينة.

ثم تتابعت الغزوات والحروب بين الرسول الكريم وقريش، فجاءت غزوة أحد في شوال من سنة ٣ هـ وانكسر فيها المسلمون واستشهد منهم ٧٠ رجلاً منهم حمزة عم الرسول الكريم ﷺ.

وبعد غزوة أحد تجرأ بعض قبائل اليهود في إظهار حقدهم ووصل الأمر إلى موقف غريب:

فقد خرج ﷺ إليهم في نفر من أصحابه، وكلمهم أن يعينوه ببعض المال – وكان ذلك واجباً عليهم حسب بنود المعاهدة – فقالوا : نفعل يا أبا القاسم، اجلس ها هنا حتى نقضي حاجتك. فجلس إلى جنب جدار من بيوتهم ينتظر وفاءهم بما وعدوا، وجلس معه أبو بكر وعمر وعلى وطائفة من أصحابه. وخلا اليهود بعضهم إلى بعض، وتآمروا بقتله ﷺ، وقالوا : أيكم يأخذ هذه الرحى (حصى كبيرة)، ويصعد فيلقيها على رأسه ؟... فقال أشقاهم عمرو بن جحاش: أنا. فقال لهم سَلاَّم بن مِشْكَم: لا تفعلوا، فوالله ليخبرن بما هممتم به، وإنه لنقض للعهد الذي بيننا وبينه. ولكنهم عزموا على تنفيذ خطتهم ، ونزل جبريل من عند رب العالمين على رسوله ﷺ يعلمه بما هموا به، فنهض مسرعاً وتوجه إلى المدينة، ولحقه أصحابه فقالوا : نهضت ولم نشعر بك، فأخبرهم بما هَمَّتْ به يهود، وما لبث رسول الله ﷺ أن بعث إلى اليهود يقول لهم : **(اخرجوا من المدينة ولا تساكنوني بها، وقد**

أجلتكم عشراً، فمن وجدت بعد ذلك بها ضربت عنقه). فرفضوا فحاصرهم الرسول الكريم ثم أبعدهم عن المدينة وكان ذلك في السنة الرابعة من الهجرة .

وكان بين تلك الغزوات سرايا يبعثها الرسول الكريم إلى بعض القبائل القريبة من المدينة من أجل توطين الأمن والاستقرار.

إن الانشغال بالغزوات والقتال لا يعني أبداً توقف بناء الإنسان وتقوية الإيمان وترسيخه في القلوب فقد كانت الآيات القرآنية التربوية تنزل والأحاديث والمواقف النبوية تتماشى معها، بالإضافة إلى تشريعات تضمن تحقيق السعادة للناس، بل إن الحروب والغزوات كانت ميداناً تربوياً خصباً لتعليم المسلمين أحكام الجهاد وتطبيقه عملياً.

واستمر الحال على ذلك حتى سنة ٥هـ، حيث خرج عشرون رجلاً من زعماء اليهود وسادات بني النضير إلى قريش بمكة، يحرضونهم على غزو الرسول ﷺ، ويوالونهم عليه، ووعدوهم من أنفسهم بالنصر لهم، فأجابتهم قريش ثم خرجوا إلى غطفان (قبيلة كثيرة العدد) ثم طاف الوفد في قبائل العرب يدعونهم إلى ذلك فاستجاب له من استجاب، وهكذا نجح ساسة اليهود وقادتهم في تأليب أحزاب الكفر على النبي ﷺ والمسلمين، فقد قدم المدينة لغزوها حوالي عشرة آلاف مقاتل من مختلف المناطق وكان قائدهم أبي سفيان .

ولما علم الرسول ﷺ بذلك سارع إلى التشاور مع أصحابه في خطة الدفاع عن المدينة، فقال سلمان الفارسي رضي الله عنه : يا رسول الله، إنا كنا بأرض فارس إذا حوصرنا خَنْدَقْنَا (حفرة كبيرة) حول مساكننا. وكانت خطة حكيمة لم تكن تعرفها العرب قبل ذلك. فوافقوا على هذا الرأي وأسرع رسول الله ﷺ إلى تنفيذ هذه الخطة وحفر خندقاً حول المدينة وشارك معهم الرسول الكريم ﷺ فقد قال البراء بن عازب : رأيته ﷺ ينقل من تراب الخندق حتى واري عني الغبار جلدة بطنه أي لا يستطيع رؤية جلد بطنه ﷺ من أثر التراب عليه .

ولما أراد المشركون مهاجمة المسلمين واقتحام المدينة، وجدوا خندقاً عريضاً يحول بينهم وبينها، فالتجأوا إلى فرض الحصار على المسلمين، وقالوا: مكيدة ما عرفتها العرب. ثم حاولوا اقتحام الخندق لكنهم لم يستطيعوا فاستمروا في حصار المدينة، وفي هذه الأثناء نقض من بقي من اليهود العهد مع الرسول ﷺ ، فاشتد الأمر على أهل المدينة حتى وصف الله هذا الموقف في كتابه بقوله ﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾ الأحزاب: ١١ وكان الرسول ﷺ وصحابته يكثرون من دعاء الله وطلب النصرة منه، فأجاب الله دعاءهم ونصرهم، ففرق شمل أعدائهم وأرسل عليهم ريحاً شديدة باردة فرقتهم واقتلعت خيامهم ، فقرروا الانسحاب والعودة إلى الديار وترك المدينة.

وتطورت الظروف في الجزيرة العربية إلى حد كبير لصالح المسلمين، وبدأت التمهيدات لإقرار حق المسلمين في أداء عبادتهم في المسجد الحرام(مكة)، الذي

كان قد صدهم عنه المشركون منذ ستة أعوام، حيث رأى رسول الله ﷺ في المنام وهو بالمدينة أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام، وأخذ مفتاح الكعبة، وطافوا واعتمروا، وحلّق بعضهم وقصّر بعضهم، فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا ، وأخبر أصحابه أنه معتمر فتجهزوا للسفر.وفي يوم الاثنين ١ من شهر ١١ من السنة ٦ هـ خرج الرسول ﷺ من المدينة متوجهاً إلى مكة لأداء العمرة ومعه ١٥٠٠ من صحابته بلا سلاح إلا سلاح المسافر.

وسار رسول الله ﷺ حتى إذا كان في مكان يسمى الحديبية علمت قريش بذلك فعزموا على منع الرسول ﷺ من دخول مكة بأي ثمن فاستعدوا للمواجهة، ثم تدخل الوسطاء من العرب بين الرسول ﷺ وقريش، وبدأت الرسل من قريش تأتي إلى الرسول ﷺ من أجل التفاوض وعقد الصلح، وبعد عدة لقاءات وافق الطرفان على عقد صلح بين الطرفين كان من أهم بنوده:

- ✓ أن الرسول ﷺ يرجع من عامه، فلا يدخل مكة، وإذا كان العام القابل دخلها.
- ✓ وضع الحرب بين الطرفين عشر سنين ، من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، وتعتبر القبيلة التي تنضم إلى أي الفريقين جزءاً من ذلك الفريق، فأي عدوان تتعرض له أي من هذه القبائل يعتبر عدواناً على ذلك الفريق.

- من أتى محمداً من قريش من غير إذن وليه –أي هارباً منهم –رده عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد –أي هارباً منه – لم يرد عليه.

فحزن المسلمون لذلك الصلح حيث أنهم لن يعتمروا، كما أن فيه إشارة ضعف وخاصة البند الأخير، لكن الرسول ﷺ المؤيد بالوحي طمأنهم وقال لمن حاوره :(إني رسول الله ولست أعصيه، وهو ناصري ولن يضيعني أبداً) .

وفي طريق عودة المسلمين إلى المدينة نزل قوله تعالى

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ ﴾ الفتح: ١

فكيف سيكون هذا الصلح فتحا عظيماً وكيف ستتعامل قريش مع هذا الفتح؟

الفصل السابع

النهاية

بحزن شديد بدى على ملامح صاحبنا، دخل على طلابه وتأمل فيهم وكأنهم ينظر إليه النظرة الأخيرة، استغرب الطلاب تلك النظرة، فبادره أحدهم قائلا:

- أيها البروفيسور، مالي أراك حزيناً اليوم، هل الورقة التي بين يديك تحمل قرارا من إدارة الجامعة أم خبراً سيئا في حياتك؟
- البروفيسور: لا يا بني. شكرا على سؤالك وحرصك، وهذه الورقة هي التي سأقرأها عليكم الآن، ولا تحمل أي قرارات ولا دخل للجامعة في كل ما ذكرته، وسأخبركم بعد قليل بسبب الحزن.

جلس صاحبنا وفتح الورقة وبدأ يقرا والطلاب يستمعون بلهفة:

٢. قال المؤرخ الأمريكي مايكل هارت (مؤلف كتاب الخالدون المائة): " ولكنه – يقصد عظيمنا في القصة – الرجل الوحيد في التاريخ كله الذي نجح أعلى نجاح على المستويين: الديني والدنيوي.

٣. ويقول الأديب الايرلندي برنادشو:" إن العالم أحوج ما يكون إلى رجلٍ في تفكير محمد، هذا النبي الذي وضع دينه دائماً موضع الاحترام والإجلال فإنه أقوى دين على هضم جميع المدنيات.

٤. قال برتراند راسل : وهو أحد فلاسفة بريطانيا الكبار والحاصل على جائزة نوبل للسلام عام ١٩٥٠، قال" : لقد قرأت عن الإسلام ونبي الإسلام فوجدت أنه دين جاء ليصبح دين العالم والإنسانية، فالتعاليم التي جاء بها محمد والتي حفل بها كتابه مازلنا نبحث ونتعلق بذرات منها وننال أعلى الجوائز من أجلها"

٥. قال العالم الهندوسي فسواني : إليك يا محمد أنا الخادم الحقير ، أقدم إجلالي وتعظيمي بكل خضوع وتكريم ، إليك أطأطىء رأسي فإنك لنبي حق من عند الله ، و قوتك العظيمة كانت من عالم الأزلي الأبدي.

٦. قالت الدكتورة زيجرد هونكة الألمانية ورجل بهذه العبقرية لا أستطيع أن أقول إلا أنه قدم للمجتمع أسمى آيات المثالية وأرفعها وكان جديرا أن تظل الإنسانية مدينة لهذا الرجل الذي غيَّر مجرى التاريخ برسالته العظيم.

٧. يقول الأديب الروسي ليوتولستوي: يكفي محمداً فخراً أنه خلّص أمة ذليلة دموية من مخالب شياطين العادات الذميمة، وفتح على وجوههم طريق الرقيّ والتقدم.

٨. يقول غاندي – الزعيم الهندي- : محمد بلا منازع يملك قلوب الملايين.

٩. قال اينشتاين : الإسلام الذي ما زال حتى الآن هو القوة التي خُلقت ليحل بها السلام.

١٠. ويقول أول رئيس وزراء الهند (هندوسي) : : فاقت أخلاق نبي الإسلام كل الحدود ونحن نعتبره قدوة لكل مصلح يود ان يسير بالعا لم إلى سلام حقيقي.

١١. ويقول أمير الشعراء الألمان في زمانه جون وولف : ولقد بحثت في التاريخ عن مثل أعلى لهذا الإنسان، فوجدته في النبي محمد.

ثم رفع صاحب الستين رأسه متوجها لطلابه : هذه بعض النصوص لمن يخالف عظيمنا في معتقداته وابجدياته، جمعتها من الشارع والفيلسوف المؤرخ والعا لم والأديب، ومن مختلف الجنسيات، وبأزمان متباعدة بينهم، وكما يقولون " الحق ما شهدت به الأعداء.

العا لم يغلي وينظر منكم الخلاص العا لم يكتوي وينتظر منكم الدواء العا لم يتصارع وينتظر منكم السلام، وقبل أن ابدأ بختام قصة عظيمنا أنقل لكم هذه العبارة والتي ذكرها مؤرخ عالمي ، بل من اشهر مؤرخي القرن العشرين إنه مايكل هارت حيث يقول :"لو كان محمدا موجودا لحل مشاكل العا لم المعقدة ...و هو يرتشف فنجان الصباح"

وألان إلى قصة عظيمنا

نحن الآن في بداية السنة السابعة من الهجرة، كانت المدينة مستقرة داخلياً حيث أن اليهود جميعاً خرجوا منها، كما أن العدو الخارجي الأول والأخطر عقد صلحاً مع المدينة فلا حرب ولا اعتداء.

وهذا كان أفضل وضع للدعوة وانتشارها بين الناس ليس في الجزيرة العربية فقط بل وحتى خارج الجزيرة، وهذا ما فعله الرسول الحكيم ﷺ فبالإضافة إلى الدعوة بين القبائل العربية فقد أرسل الرسول الكريم ﷺ إلى الملوك في ذلك الزمان مثل النجاشي ملك الحبشة وهرقل قيصر الروم، وكسرى ملك فارس، والمقوقس ملك مصر وغيرهم.

ولا يعني نهاية السرايا والبعوث فلم يزل في جزيرة العرب بعض القبائل المعادية للدعوة والتي لابد من أخذ الحيطة منها، لذا بعث ﷺ مجموعة من السرايا لمناطق مختلفة لم يحصل فيها قتال كثير.

خروج اليهود من المدينة لم يكن يعني خروجهم من الجزيرة، فهم لا يزالون في منطقة خيبر المحصنة والتي تبعد عن المدينة حوالي ١٠٠ كم وكانت منطلقاً لتخطيط اليهود وتدبير مكائدهم ضد المسلمين، فقرر الرسول الكريم ﷺ أن يغزو خيبر ويفتحها، فتجهز وأخبر أصحابه بذلك فخرجوا جميعاً في بداية العام السابع من الهجرة.

كانت خيبر مدينة ذات حصون قوية وكثيرة (ثمانية حصون متداخلة) مما جعل مهمة الرسول ﷺ صعبة في البداية، فحاصرهم وقاتلهم وهم ينتقلون من حصن إلى

حصن واشتدت المعركة، وبعد أكثر من شهر فتح الله على رسوله ﷺ خيبر وحصل منها على غنائم كثيرة ووفيرة، وخرج اليهود بعدها من جزيرة العرب بشكل نهائي.

واستمرت البعوث والسرايا النبوية لدعوة قبائل نجد وما حولها حتى جاء وقت عمرة القضاء على حسب الاتفاق بين الرسول الكريم ﷺ وقريش، فخرج ﷺ إلى مكة وأدَّى العمرة ثم عاد إلى المدينة المنورة، واستمر في نشر الدعوة وتعليم الناس والقرآن ينزل بالتشريعات والتنظيمات للمجتمع الإسلامي حتى جاءت سنة ٨ من الهجرة وفيها حدث أمر عظيم:

فلقد كان الصلح بين الرسول وقريش يقتضي أن لا يعين أي من الطرفين على حرب المحالفين للطرف الآخر، لكن قريشاً نقضت العهد وأعانت بعض العرب على المحالفين للرسول الكريم ﷺ ، ووصل الخبر إلى الرسول فتجهز وأعد الجيش للزحف على مكة ومباغتة أهلها ، ولما كان الجيش الإسلامي على مشارف مكة علمت قريشاً بالأمر وأيقنت أنه لا قِبل لها بمقاتلة الجيش الإسلامي فأعلنت استسلامها .

وفي يوم ١٧ رمضان عام ٨ من الهجرة دخل رسول الله ﷺ مكة، والمهاجرون والأنصار بين يديه وخلفه وحوله، حتى دخل المسجد، فأقبل إلى الحجر الأسود، فاستلمه، ثم طاف بالبيت، وفي يده قوس، وحول البيت ثلاثمئة وستون صنماً، فجعل يطعنها بالقوس، ويقول﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ الإسراء: ٨١ ، ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾ سبأ: ٤٩

، والأصنام تتساقط على وجوهها، ثم صلى بالكعبة وخاطب قريشاً قائلاً:(يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم؟) قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، قال: (فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته: "لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ" اذهبوا فأنتم الطلقاء).

هكذا هي النفوس الكبيرة تعفو حين تقدر، فمع كل ما عملته قريشاً من قتل وتعذيب ومقاتلة والسعي في الصد عن دين الله يقول " لا تثريب عليكم " وانتم " الطلقاء" فلاإله إلا الله ما أعظمه من رسول وما أرحمه وصدق الله فيه ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾ الأنبياء: ١٠٧

وهكذا عادت مكة إلى حاضرة الإسلام وإلى الدين الحق ، وكان فتح مكة هو أعظم فتح حصل عليه المسلمون في هذه الأعوام، تغير لأجله مجرى الأيام، وتحول به جو العرب، فقد كان الفتح حداً فاصلاً بين السابقة عليه وبين ما بعده، فإن قريشاً كانت في نظر العرب حماة الدين وأنصاره، والعرب في ذلك تبع لهم، فخضوع قريش يعتبر القضاء الأخير على الدين الوثني في جزيرة العرب، لكن هذا لا يعني القضاء النهائي على كل المعاندين بل بقي فئة قليلة استطاع الرسول ﷺ القضاء عليهم ، وكان من أشدها غزوة حنين والتي كانت آخر الغزوات الكبيرة للرسول قبل عودته إلى المدينة ظافراً بفتح مكة .

ومع الانتصار النبوي على قريش بدأت وفود القبائل في الجزيرة العربية تأتي إلى المدينة وتعلن إسلامها أمام الرسول الكريم حتى سمي عام ٩ هـ بعام الوفود، وبدأ

الناس يدخلون في دين الله أفواجاً وتضاعف عدد المسلمين حتى أن الجيش الإسلامي الذي كان قوامه عشرة آلاف مقاتل في غزوة الفتح (٨ هـ) يصبح أكثر من مئة ألف في حجة الوداع (١٠ هـ).

لقد تمت الدعوة وتكامل بناء المجتمع الإسلامي، وأصبح الإسلام هو الدين الأقوى في جزيرة العرب، وأصبحت مكة تحت السيطرة الإسلامية وما يتم فيها إلا ما يوافق الشريعة، ومن أجل إتمام الرسالة وتحقيق الهدف المنشود فقد قرر الرسول الكريم الحج في عام (١٠) من الهجرة فأعلم الناس وانتشر الخبر، فتوافد الناس من كل مكان إلى المدينة من أجل شرف مصاحبة النبي الكريم ﷺ في رحلة الحج.

وفي شهر ذو القعدة من عام ١٠ هـ خرج الموكب الكريم متوجهاً إلى مكة لأداء مناسك الحج اقتداءاً بالرسول الكريم ﷺ ، ووصل إلى مكة وفي يوم عرفة (٩ ذي الحجة) خطب الرسول الكريم خطبته العظيمة ومما جاء فيها : **"أيها الناس، اسمعوا قولي، فإني لا أدري لعلى لا ألقاكم بعد عامي هذا، إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا ... وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به، كتاب اللّه، أيها الناس، إنه لا نبي بعدي، ولا أمة بعدكم، ألا فاعبدوا ربكم، وصلّوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدوا زكاة أموالكم، طيبة بها أنفسكم، وتحجون بيت ربكم، وأطيعوا أولات أمركم، تدخلوا جنة ربكم ، وأنتم تُسألون عني، فما أنتم قائلون؟"** قالوا: نشهد

أنك قد بلغت وأديت ونصحت. فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء، وينكتها إلى الناس: "اللهم اشهد" ثلاث مرات.

وبعد أن فرغ النبي ﷺ من إلقاء الخطبة نزل عليه ﴿..ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ..﴾ المائدة: ٣

لقد كَمُلَ الدين واكتملت الرسالة وتحقق الهدف من بعثة الرسول الكريم ﷺ ، وهذا كله إشارة إلى قرب وفاة الرسول الكريم ﷺ ، فبعد أن رجع الرسول الكريم ﷺ من الحج واستقر في المدينة بدأت مقدمات النهاية.

وفي شهر صفر سنة١١هـ -وكان يوم الاثنين -شهد رسول الله ﷺ جنازة في البقيع، فلما رجع، وهو في الطريق أخذه صداع في رأسه، وارتفعت حرارته، وقبل خمسة أيام من وفاته دخل المسجد حتى جلس على المنبر ، وكان آخر مجلس جلسه، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال:" أيها الناس، إليَّ " ، فتجمعوا حوله، فكان مما قاله : " لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد" ، وعرض نفسه للقصاص قائلاً: (من كنت جلدت له ظَهْرًا فهذا ظهري فليستقد منه، ومن كنت شتمت له عِرْضاً فهذا عرضي فليستقد منه).

وجاء اليوم الأخير فبينما المسلمون في صلاة الفجر ليوم الاثنين –وأبو بكر رضي الله عنه يصلي بهم – كشف الرسول ﷺ ستر حجرة عائشة فنظر إليهم، وهم في صفوف الصلاة، ثم تبسم يضحك، ولما ارتفع الضحى، دعا النبي ﷺ فاطمة فسَارَّها بشيء فبكت، ثم دعاها، فسارها بشيء فضحكت، قالت عائشة: فسألنا عن ذلك –أي فيما بعد –فقالت: سارَّني النبي ﷺ أنه يقبض في وجعه الذي توفي فيه، فبكيت، ثم سارني فأخبرني أني أول أهله يتبعه فضحكت.

وبدأ الاحتضار بسيد البشر، فجعل يُدخِل يديه في الماء فيمسح به وجهه، يقول: "لا إله إلا الله، إن للموت سكرات"، حتى رفع يده أو أصبعه، وشخص بصره نحو السقف، وتحركت شفتاه، فأصغت إليه عائشة وهو يقول: (مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، اللهم اغفر لي وارحمني، وألحقني بالرفيق الأعلى. اللهم، الرفيق الأعلى).

هنا وقف صاحبنا تخنقه العبرة وتسقط من عينيه دمعه، وقد ساد القاعة الحزن مع صوت بكاء خفيف لبعض الطلاب، ثم استجمع صاحبنا قواه ليكمل :

كرر الكلمة الأخيرة اللهم، الرفيق الأعلى ثلاثاً، ومالت يده ولحق بالرفيق الأعلى.

إنا لله وإنا إليه راجعون.

وقع هذا الحادث حين اشتدت الضحى من يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول سنة ١١هـ، وقد تم له ﷺ ثلاث وستون عاماً وزادت أربعة أيام.

وهكذا أُسدل الستار على أعظم إنسان وأفضل من خلق الله من الإنس والجان، بعد أن بلّغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده كان هذا الجزء الأخير من سيرة رسول الإسلام، ذكرنا فيها إلى مختصراً لسيرته وهديه، اسأل الله أن يحشرنا في زمرته وأن يرزقنا شفاعته وإتباع سنته، ومن أراد المزيد فعليه الرجوع إلى كتب السيرة النبوية.

وهكذا انتهت قصتنا ، و انتهى لقائي معكم

فهذه آخر لحظة سأكون فيها معكم ، استمتعت

معكم، وسعدت بمعرفتكم. أظنكم عرفتم الإجابة على

مَن أعظم عظماء الأرض . وادركتم لماذا كنت حزيناً

عند دخولي لكم اليوم.

اسأل الله لكم التوفيق في هذه الجامعة أولاً ثم في

حياتكم المستقبلية، وأني في شوقٍ كبير لرؤيتكم عظماء

في هذه الأرض لتأخذوا بيد أهلها إلى السعادة والرخاء.

اخيرا تذكروا أن العظيم لابد أن يكون عظيماً في نفسه

ملتزماً بقيمة مطبقاً لرسالته قبل ان يطلبها من الآخرين.

والسلام عليكم

تم بحمد الله

المحتويات

المقدمة	٤
الفصل الأول الطفل اليتيم	٨
الفصل الثاني: الرسالة	٢١
الفصل الثالث: الصراع في مكة	٣٠
الفصل الرابع: الفرج والمخرج	٤٠
الفصل الخامس: البناء والمواجهة	٤٩
الفصل السادس: الغزوات النبوية	٥٨
الفصل السابع: النهاية	٦٩

العمر الحقيقي للإنسان ليس بعدد السنوات التي عاشها، بل بما يحققه من إنجازات وبما يساهم فيه لبناء الحضارات والرقي بالبشرية إلى أسمى الدرجات، فهناك الملايين بل المليارات من البشر ممن عاش على هذه الأرض لسنوات طويلة لكنه لم يترك له بصمة فيها، وفي المقابل هناك من عاش سنوات محدودة لكنه لا يزال يُذكر في كل الأحوال ولا تزال سيرته تُروى لكل الأجيال.

صاحب الستين